

الاساليب

للاستاذ امين الخولى

المدرس بكلية الاداب

في مصر اليوم أساليب تمتاز بامتياز البيئات ، وتختلف باختلاف الثقافات ، ويذهب كل أناس بأسلوبهم لا يعدلون به أسلوبا ، ولا يرضون ، منه بيلا ، بل لا يرون له مثيلا ؛ ونحن بين ذلك كله في حيرة مما نأخذ وندع

وما أعنى الاساليب الادبية ولا الأنماط الفنية ، فلعل الامر في ذلك هين يسير ، انما أعنى أساليب التفكير ، وطرائق التعقل ومذاهب الناس في تقرير الحقائق ، وتقبل ما يقبلون منها ورفض ما يرفضون . تتمثل في مصر اليوم بيئات فكرية متعددة ، وطرائق تهذيب مختلفة الاصول متباعدة الأسس ، حتى لترى المسلمات المقررة عند فريق ، تنكسر في عنف بل في سخرية أحيانا عند آخرين ، ونحن على هذا في مفترق طرق متشابكة ؛ وشباننا الآخذون سبل الحياة في حيرة ، لا يجدون معالم واضحة ، ولا يدرون أين يذهبون ، وحين يلتمس أولئك الشبان الحقيقة من هداة أدلاء يحملون الاعلام في هذا البلد لا يجدون الا من يداوى الاختلاف بالفرقة ، ولا تستقر الحياة الفكرية لامة هذا شأنها . وإذا كانت مصر قد خلصت من تعدد العناصر ، وتكاثر اللغات ، واختلاف الاديان والنحل فانها لما تظفر بوحدة المزاج النفسى ، وتجانس الأسلوب الفكرى ؛ وليس ذلك على أمة ناهضة بايسر خطرا وأهون شأننا من النواحي الاخرى في الاختلاف

وما جردت اليوم قلبي لأكتب سدا لفراغ أو تلبية لطلب كما كثر ما يكتب الآن ، بل تأثرا بحالة أشهدا كل يوم حين أغدو وأروح بين الجامعتين الازهرية والمصرية ، وأعانيها كل يوم مع هؤلاء الشبان الذين لا يكاد يهون معهم التفاهم المنظم ، بل يشق ويعسر إن لم أقل يستحيل . أرى في الجامعتين محافظين مسرفين ، ومجددين مسرفين ، وقد أرى هؤلاء حيث لا يتوقع ان أراهم ، وأجد أولئك حيث لا يدور بخلدى ان تقع عيني عليهم ، كما أرى في الناحيتين من لم يتجددوا ولم يحافظوا ، ولكل أسلوب فكرى مضطرب فاسد ينتهى به الى نتائج تزيد مسافة الخلف بينه وبين الآخرين . وما إخال القارىء في حاجة الى شيء من المثال على

ذلك ، فهو واجده حيث يرسل بصره ، ويصيح بأذنه ، جليا واضحا في صحافتنا اليومية والاسبوعية والشهرية ، وفي أديتنا ومجامعنا ، وفي المناقشة تجري بين متعلمين في أى مكان ؛ وهى حال لا يندع عنها أحد مهما تجاهلها ؛ يشعر بها كل ذى أسلوب من تلك الاساليب فتجد صداها في أسف صاحب القديم أسفا عميقا على ما يكون من طيش أولئك الذين لا يبرءون عن الهوى والنزق ، ولا يعفون من الانهام في دينهم ووطنيتهم . كما تجد صورة ذلك الافتراق في ضجر المشتطين وتبرمهم بتلك التقهقرات التى تصيب التدرج العقلى ، وتعوق الحرية الفكرية ؛ وفي سخطهم على هاتيك الرجعات التى تنكسر بها النهضة ؛ وكما تجد هذا الافتراق في الاساليب عند المترددين بين الطريقتين المحاولين التوسط ، حين يقصون من الجديد ويمطون في القديم ، يرجون ان يتقابل هذا وذاك ويتوافقا ؛ فى كل هؤلاء تجد أساليب من التفكير مختلفة ، فتشعر فى ألم باضطراب كياناتنا الفكرى ، وتجد هذا الاضطراب يزداد شدة وخطورة ، حين تتحكم فى التفكير نزوة سياسية ، أو يصل أصحاب الرأى حبلهم باعتبارات دينية ، عند ذلك يشتد اضطراب أسلوب الفكر حتى يصير قلقا مزعجا واتكاسا عجيبا ، والويل كل الويل للحقيقة ؛ بل الويل كله لشباننا خاصة حين يضع منه جيل وجيل ضحية هذا الاضطراب ، وحين يقبع الحائفون من هوى السياسة ، ومجازفة أهل الدين ، فيسكتون طمعا فى السلامة ؛ أو يروجون لما هو فى سريرتهم خطأ بل ضلال . فتضيع الحقيقة ويضيع الشبان قربانا لهذا الحذر وحب السلامة . لقد أخشى ان يتلكأ قلبي أو يتوقف حين ثارت ذكرى هذه التهديدات ، فيؤثر الاخلاص الوديع الى الهدوء ؛ لكننى حامله على ألا يفعل ، وماض فى نقد تلك الاساليب مهما غضب أصحابها ومصطنعوها مبتغيا وجه الحقيقة وحدها . غير ملوث ما أقول بشيء من هذه المهاترة التى تسود جو المناقشات عندنا فتكون شرا على شر .

1

فى مصر نفر أسلوبهم الفكرى ان يضعوا العقل فى مكان الانسان من يد الموت كما يشبهه طريقة بن العبد فى قوله : لعمر ك إن الموت ما أخطأ الفتى لكأ طول المرخى وثنيه باليد يحول العقل فى مسارح الكون على ان يظل حبله فى يدهم ، أو يد الدين كما يفهمونه هم لا كما هو فى طبيعته وحقيقته ، فحيث خلوه سرح ، وحيث كفوه انكف ، وحيث اهزوا حبله فهو خاطيء . وتقول لهم ان غنيم بهذا التحكم فى العقل أنه عاجز عن استكناه كل شيء

والنفاذ الى صميم الحقائق كلها فنحن معكم ، لكن دعوا العقل يشعر من نفسه بهذا العجز ، ولا تفرضوا عليه العجز فرضا وسيطرة ؛ بل دعوه يعرفه بالتجربة ، فأبون إلا أخذه بالجل . وتنبيههم ان مسالك العقل في الوصول الى الحقائق مختلفة ، ومنها ما لاسيل الى رد نتائجها ، ولا حيلة في نقضها ، فهو حين يعتمد التجربة ويحدث عن واقع لا خبر لكم في مناقشته ، ولا سبيل لكم الى كفه ، وان تفعلوا فهو متمرد يخشى عليكم خطره ، فأبون ألا الجبل . تتحدث اليهم مثلا عن تدرج المعارف البشرية وترقيتها وما يشاهد من مظاهر ذلك البارزة في طبقات الناس ، فيجبهونك بأن آدم أبو البشر قد عليه الله الاسماء - وعليه الله المسميات أيضا - وهو رسول ، فليس يصح بعد ذلك ما تقولون من هذا التدرج . وليس الامر عندهم ألا ان رأس الدنيا في قدمها وعقلها في عقبها ؛ ولا يجديك ان تفرق بين الخبرة الحلقية النفسية ، والمعرفة العلمية ؛ ومهما تساهلت أو تنازلت لاتصل منهم الى رضا واطمئنان . يسمعون ان الكائن المادى والمعنوى يتأثر ببيئته ؛ ويتبادل التأثير مع جميع ماحوله ؛ فلا يرضون ان يكون الفقه الاسلامى مثلا قد جرى عليه ذلك واصابته هذه الفضيحة ! ويضربون الارض برؤوسهم معلين أنهم ان يسمعوا بان يقال ذلك .

مثل هذا الاسلوب خاطىء . يضيع ما يريد الدين ان يخفف به غلواء العقل ونزقه ، ويزج أصحابه بالدين فيما ليس من شأنه ؛ ويضيعون معالم الأشياء ، وحدود الحقائق ليجدوا تحكما في العقول البشرية ، وينبوا لها محابس ويضعوا عليها أغلاقا ؛ وقد طبعها الله وثابة نفاذة متغلغلة محلقة

٢

وفى مصر قوم اسلوبهم ان يرسلوا العقل ، أو قل يرسلون أنفسهم إرسالا ، فيقولون بالظنة ، ويحكمون بالشبهة ، ويقطعون بالبذاء ، ويجزمون بالدحة ؛ هذا إذا كان الحكم لهم ، فان كان من غيرهم طلبوا من الدليل ما لا يطلب ، وجعلوا العقل التجريبي في موضع الظنى ، فتارة يقابون الحقيقة ، فكما يسمون النتيجة التجريبية علما ، يسمون النتيجة النظرية علما ، ويسمون الفرض الاضطرارى علما ، ويسمون الحل المؤقت الذى يعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما ، فيزعمون ان ذلك كله من مملكة العقل التى هو فيها حر مسيطر ليس لأحد ان يحد من سلطته . يريدون ان تكون الحقيقة الطبيعية ، والنتيجة الرياضية ، والرواية التاريخية والخطرة الفنية ، كل أولئك عقليات عليات لا فارق بينها ؛ ولها

جميعا ان تضرب وجه الدين ، وتصفع قفاه ساخرة في غير حياء ولا تقدير حتى لآداب اللياقة ؛ وطورا على اساس هذه التسوية الغريبة برون ان العلم اذا لم يلس وجود شيء فليس موجودا ، ولا يصح لعقل ان يتحدث عنه ، ومادام الآله لم يختبر في العمل فلا معبود ولادين ؛ يشكون والشك حق فطرى لا ينكر عليهم ؛ لكنهم لا ياتمسسون الادلة كما هى الخطوة الاولى بعد الشك ، بل يطرحون ما شكوا فيه وهم ملونه . وكذلك يفعلون حين يشتبهون ويقوى في تقديرهم الاشتباه ، فيعدون اشتباههم آية عجز كل محاولة للثبات ، وفشل كل دليل ، فيطمشون الى بطلان ما اشتبهوا فيه . وتقول لهم ان الاسلوب التجريبي لا يقبل مادون التجربة مادامت مستطاعة ، فاحكموا اليه متى أمكن ، وهاتوه اذا مادعيهم ؛ أولا فاحسنوا تقدير مادونه من الادلة ، فأساليب البحث مختلفة ، ولكل فرع اسلوبه ؛ ونحن فى أساس التجمع ، ونظامه ، والتشريع له ، وفى حقبة الحق ، وخبرة الخبر ، وغير ذلك لائملك التجربة ولا المعادلة الرياضية فثبتت بماعداها ونسلم ؛ فلامم مثبتون بالتجربة إذا ادعوا ، ولاهم قابلون من غيرهم مثل دليلهم إذا ادعى ؛ وتحدثهم عن ان بطلان الدليل لا يستلزم بطلان المدلول ، وان ما نجعل أكثر مما نعلم فيسخر هذه العبارات القديمة ؛ ويناقضون انفسهم فى تقرير ما يرفضون مثله ، ورفض مثل الذى يقررون .

ذلك اسلوب خاطىء ؛ لا يحدد قيم المعلومات ، ولا يطلب لكل دعوى دليل مثلها ، ويضيع معالم الحقائق فى النفس ، فيخضع الانسان للفرض والظن اخضاء اياه للجرم المطرد فيفسد التقدير ، ويسلم اعداء الحرية الفكرية باغلاط اولئك المتحررين خطأ ، ويضيع هبة العلم . ويعكر ما بينه وبين الدين ، بل ما بين العلم والاخلاق مما له اثره العنيف الخطر فى حياة الجماعة

٣

فى مصر من اسلوبهم ان يهجموا على مخالفهم فى الفكرة قبل تأييد فكرتهم ؛ ولو كان هذا المخالف يتناول الموضوع من غير الناحية التى يتناولونه هم منها ، وبطريق غير طريقهم ؛ فتراهم يوازنون بين الفكرتين ويفاضلون بين الرأيين ؛ ولما يبحثوا أولا يدلم بان يبحثوا إلا واحدا منهما ؛ بل هم لم يفرغوا بعد من بحثهم وتأيد رأيهم ، ويزيدون ذلك بالألا يجعلوا الموازنة علمية ، بل يقبلونها موازنة خلقية أو فنية ، فلا يبينون الخطأ ولكن يقولون هذا تغرير أو هذا سخيف وما الى ذلك مما يغضب ويؤلم ، دون أن

(البقية على صفحة ٤٢)